



## تحولات قيم الإنتاج بالصحراء المغربية

### من البداوة إلى الاستقرار

الطالب الباحث سالم الكبيش

جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس

كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس، فاس

تخصص التاريخ

المغرب

الصحراء كاسم ليس محددًا بما يكفي فهل المعنى من الصحراء المجال، أم الانسان، أم هما معا وهنا يبدو أن المزوجة في استعمال المعنيين يتيح للباحث التمكن من الموضوع عبر اخذ الصحراء المغربية نموذجًا لبناء الفرضيات واختيار الاسئلة الاشكالية بدقة.

ان واقع المجتمع العربي لم يتخلص بعد من الارث القبلي ان في نمط التفكير ولا حتى السلوك وهو ما يجعل عمليات البحث الرصين مطلوبة لفهم اوسع لديناميكية التفاعلات ضمن الظاهرة القبلية وان ارتبطت بمجالها لم تلغ هوامش التغيير التي طالت الانسان والمجال معا.

وصفت عملية التاريخ في فترة من الفترات بأنها لم تكن دائما على مسار واحد وقد شكلت العائلة اللبنة الاولى في بناء مجتمع متنامي يصل الى تأسيس دولة في اخر المطاف. وقد شكل بحث ماركس وانجلز حول أصل العائلة والدولة نقطة تحول في بناء الدولة الوطنية والقومية.

ان التحولات من نظام الظاهرة القبلية المرتبطة بالمجال الى الاقليم جاء في خضم تحولات كبرى شهدتها بنية وهيكل الدولة وان كان المخزن بخصوصية ملحوظة قد سبق الدولة الاستعمارية وبالتالي فإن تحديث الدولة المخزنية والسلطانية حسب توصيف عبد الله العروي نكون امام تحول من مجال القبيلة الى مجال الدولة أي بروز مفهوم الاقليم.

عمليا ظاهرة البداوة انصهرت مع ثلاثية الترحال أي الخيمة والرعي والماء اما الاستقرار فقد ارتبط بالمنزل واقتصاد السوق والانتاج عموما والانتقال بين هذه المفاهيم خلف ردود فعل عميقة في بنية المجتمع القبلي ان تحولات المجال في عالم ما بعد الحداثة قد فرضت نفسها على الانسان وبالتالي فقد تغلغت في ذهنية الاخير تمثلات جديدة مغايرة عن فضاء الخيمة والرعي وقد زادت حدة هذه التحولات مع تبدلات الانتاج ووسائله.



إن محاولة تفكيك الجهاز المفاهيمي لعنوان الدراسة يسمح بحصر الموضوع واشكالية موضوع تحولات قيم الانتاج بالصحراء من البداوة الى الاستقرار تبني على مفاهيم مركزية هي الاخرى محصورة في القيم والانتاج ثم الصحراء والبداوة والاستقرار خمس مفاهيم مركزية تؤطرهما المقاربة التاريخية لكنها ضمنا تساءل السوسولوجيا والأنثروبولوجيا كعلوم يصعب فهم السلوك الانساني بم عزل عنهما.

ان المقاربة الأنثروبولوجية للنظام الاجتماعية والسياسية يجد مستنده في ملية تأريخ سليمة فلا يستقيم البحث في ظاهرة دون العودة لسياقها والذهاب بعيدا في عملية التأويل ونقد الواقعة الا ان جبة التاريخ وعلومه تكبل الباحث في الدراسات التاريخية.

يعود مصطلح "البدو" حسب جاك بيرك الذي تستخدمه الدول المتقدمة لوصف المجتمعات التي تختلف كثيرا عن مجتمعاتهم على الرغم من أنها بعيدة كل البعد عن كونها، إلى العصور القديمة البعيدة، لكن معناها لم يكن واضحا تماما. طبقتها هيرودوت، أبو الإثنوغرافيا، في أيامه على إثيوبيين الصحراء. وشعوب المغرب العربي الحالية تحكم في الصحراء مجالين مناخيين يؤثران على نمط الانتاج فالمجالات القريبة من البحر شكلت مدن مركزية آنذاك وكانت مركز تجاريا ومنطقة استراحة للقوافل التجارية بينما كانت المجالات الداخلية أكثر ندرة من حيث الموارد ويكاد يعرف بئر هنا وهناك للتزود بالماء والزراعة فيها مرتبطة بالأمطار. حتى ان الواحات شكلت جسرا اقتصاديا يخفف من وطأة شدة الطبيعة القاسية الا انها لم تستطع استيعاب الكثافة القبائل.

ان تنقل الانسان البدوي لم يعرف حدودا ومع ظهور الاقليم كمفهوم متطور ظهر مع الدولة الحديثة قيد حركة البدو وكان عاملا من مجموع عدة عوامل دفعت الانسان البدوي للاستقرار وكان شرط الاستقرار مؤسس على المياه والمراكز التجارية. وقد كانت القبائل متصارعة حول المياه كما هو الحال للمراكز التجارية والفرد في ظل القبيلة يعيش حياة الصراع من اجل البقاء غير قادر على توفير الحماية لنفسه بعيدا عن القبيلة. والتي توفر له السلامة لنفسه وممتلكاته من جهة ومن جهة اخرى في صراع مع الطبيعة من اجل تحصيل المعاش الذي يرتبط بالظروف الطبيعية في الغالب<sup>1</sup>. حيث يحصل الاستقرار بفترة الامطار وتضطر القبيلة للترحال والتنقل ايام الجفاف والقحط بحثا عن الماء. وقد شكل الماء الدعامة الاساسية في الاقتصاد وحدد المجالات الرعوية والموسمية للقبائل الرحل. وساهم في تحديد المواقع التجمعات السكنية الانتاج لا ينحصر في المجال الاقتصادي التجاري انما يمتد الى ما هو اجتماعي واخلاقي حيث قيم التضامن والتكافل ثم قيم التنافر والعصبية والمركزية الاثنية ثم يمتد الى القواعد الاخلاقية التي تؤسس العلاقات البينية بين افراد القبيلة كما انها تحتوي مفاهيم الشجاعة والفروسية عبر الجهاد في وقت متأخر و"غزي" في وقت أبكر منه. الامر لا يلغي كذلك حقيقة ان قيم الانتاج الاقتصادية تؤثر في قيم اجتماعية يتصرف من خلالها الفرد بعلاقته مع الاخر سواء داخل الاثنيات او في علاقتها مع الاخر الغريب والعنصر الخارجي.



ان الدراسات التاريخية اصطغت مؤخرا بنفس اثنوبولوجيو سوسولوجي كأدوات علمية تساهم في جودة مخرجات البحث العلمي الرصين. لذلك فإن فهم طبيعة العلاقة بين الانسان والمجال انطلاقا من قيم الانتاج يستحضر قسرا مناهج علمية اخرى تساهم في تنويع العرض المعرفي ليشمل جوانب الموضوع بشكل أكثر دقة.

ان التمثلات الذهنية للفرد بالصحراء أضحت مجالا للبحث نظرا للحاجة الى الدراسات لفهم اليات ضبط المجتمع بالمجالات الصحراوية فهاجس التنمية لم يترك مجالا للمركز ان يهمل الهامش والاطراف.

ففي النهاية بدأت الدول تتفطن الى ان الاطراف القوية في الدولة المركزية تزيدها قوة، لذلك وامام ندرة الدراسات التي تهتم بالمفاهيم الخمسة المركزية المؤطرة فإن راهنية الموضوع تستمد حضورها من اهميته في فهم انماط السلوكيات والذهنيات كما ان هاجس التنمية أصبح ينظر للأرض كأنها اساس النمو والتطور لكنها بقيت في تناقض مع ارتباط الانسان البدوي بأرضه.

### اشكالية الموضوع:

امام كل ما تقدم وغيره يفترض ان تعالج الاشكالية سؤال مركب بحيث يمكن التساؤل عن مفهوم الاقليم كبديل عن مفاهيم الأرض والتراب والنضارب في الجاهلية فالانتقال من مفهوم لآخر صاحبه تبدلات عميقة مست وسائل الانتاج والانتاج نفسه.

فما طبيعة التحولات التي مست قيم الانتاج في الصحراء؟ ما طبيعة التمثلات الذهنية التي صاحب الانتقال من الخيمة الى البيت؟ ماهي انماط القيم التي تفرزها الانسان بالصحراء؟ ما تأثيرها على الانسان وعلى المجال؟ وماهي العوامل المتحكمة في الترحال والاستقرار؟

للإجابة عن الاشكالية نقترح التصميم التالي:

يرتبط أفراد القبيلة في زمر اجتماعية عن طريق مجموعة من الروابط والعلاقات، وتمثل رابطة القرابة أهم هذه الروابط،<sup>2</sup>

-قيم المعيشة: ويتمسك البدو بعدد من القيم التي تتصل اتصال مباشرا بنمط معيشتهم اليومية، وبين هذه القيم نشير إلى التأكيد على البساطة والفضيلة وتحمل الصعوبات والخشونة، والصبر وتحمل الظمأ في الصحراء والجوع، ويتصل بهذه المعيشة في الصحراء هذا الولع الهائل بالماء والظل والاختضار والتنقل دون استقرار والليل والنجوم، و البدو معرضون لقسوة الطبيعة فلا يملكون القدرة على السيطرة على قواها التي تتحكم بحياتهم وتفرض عليهم نظامها الخاص، غير أن البدوي نفسه جزء لا يتجزأ من هذا النظام العام الذي يتلاءم معه دون كثير من التساؤل المشكك بقدرته الهائلة<sup>3</sup>.



إن الانتقال من زراعة واسعة وجافة لم تكن إلا تكميلية لتربية الماشية إلى أخرى مسقية و مكثفة يعكس مدى التحول في ذهنيات ممارسيها. يظهر هذا التحول جليا في اكتساب تقنيات هذا النوع من النشاط في اختيار المزروعات التي تتلاءم مع طبيعة المنطقة وفترات زرعها و وجود المزارع طيلة اليوم و خلال كامل الحملة الزراعية التي تدوم عدة أشهر في الحقل، على عكس ما كان يُمارس من قبل فيما يتعلق بالزراعة الجافة التي لا تتطلب سوى مدة شهر على أكثر تقدير ما بين الحرث و الحصاد ثم يتفرغ صاحبها لممارسة الرعي<sup>4</sup>.

ارتبط استقرار القبائل الناجعة عند ابن خلدون بضعف عصبيتها، وبالتالي عدم قدرتها على الرحلة والابعاد فيها، لكننا نجد يلمح خلال حديثه عن استقرار بطون بني يزيد من زغبة بجهة تطيري ان توليهم لبلاد الريف وخصبه قد دفعهم الى استئانة فقل اهل الناجعة منهم، رغم اتساع النشاط الرعوي بالمغرب الاوسط اثر الوجود الهلالي، باعتبارهم من الامم الناجعة فإن هذا لم يكن منافيا لاستمرار النشاط الزراعي ذلك ان ضرهم وعبثهم بالمحاصيل الزراعية لم يدم طويلا ويعود هذا لنجاح المنصور بن الناصر في مصالحة العرب مقابل ان يجعل لهم نصف غلى البلاد، وهو ما يجعلهم يستفيدون من استمرار الانتاج الزراعي، والى جانب هذا لا يمكن ايضا ان نتجاهل دورهم في تعزيز التحول الاقتصادي الزراعي من البوادي والارياف التي احدثوا بها أضرارا بالغة<sup>5</sup> نحو اقتصاد المدينة القائم على البستنة داخل اسوار المدن والحصون<sup>6</sup>

#### اضافة الى الإبل تحظى قطعان الاغنام باهتمام كبير باعتبارها المصدر الرئيسي لثروة القبائل البدوية في المنطقة.

من المعلوم أن مسألة تناقلت الرحل خارج مجالات استقرارهم والعوامل المتحكمة في هذا التنقل، والتحولات التي أفرزتها، ليست وليدة الفترة الحالية، بل كان هذا النوع من التنقلات في السنوات الأكثر جفافا صوب المناطق الأقل تضرا مسألة متعارفا عليها، وفي إطار توافقي بين كل قبائل الأطلس الكبير الأوسط، والجنوب الشرقي، وكذا بعض المناطق السهلية. ولم تكن هناك اتفاقيات واضحة بين هذه القبائل، تحد من التحركات والتنقل داخل أراضي قبلية أو أخرى. وبما أن الثروة الحيوانية تعتبر المورد الاقتصادي المهم لهذه القبائل، فقد جعلت من الأراضي التي تسيطر عليها أراضي رعوية مفتوحة<sup>7</sup>

يرى باحثون ان عملية الترحال او الانتقال تتسبب صراعات يعزى أغلبها إلى الترامي على المراعي الجماعية للقبائل المجاورة. كما أن وفود القبائل في السنوات الأخيرة إلى مراعي الأطلس الكبير الأوسط - رغم تراجعها - إلا أن قبائل الجنوب الشرقي أصبح وصولها إلى الأطلس الكبير الأوسط سهلا، نظرا لتطور المواصلات ووسائل النقل، بالإضافة إلى الشراكة بين القبائل في تربية المواشي ورعيها، هذه العوامل مكنت الرعاة والرحل من المكوث داخل المراعي في مختلف أوقات السنة وبشكل مطول<sup>8</sup>.

تجدر الإشارة إلى أن العالقة التي كانت تربط الرحل بساكنة المناطق المرتحل إليها، كانت عالقة توافقية تحكمها اتفاقيات - أغلبها شفوية

- عن طريقها يتم تدبير المراعي بدون مشاكل.<sup>9</sup>



ساهمت عدة عوامل في تناقلت الرحل وترك مجالاتهم ومسكنهم، وأبرز هذه الأسباب الجفاف وتأثيراته السلبية على الساكنة ومواشيها، الشيء الذي يدفع الرحل للبحث عن مجالات رعوية جديدة، وترك مجالاتهم التقليدية المتضررة من هذه العوامل الطبيعية. وأيضا تربية الرحل لبعض أصناف المواشي التي تحتاج لظروف طبيعية ملائمة لتوالدها واستغلال مواردها<sup>10</sup>

ما الأدوار داخل المجتمع، فتحتمل الدقة من خلال توزيعها بين أفراد العائلة أو العشيرة، وبذلك تصبغ الروح الأناية للفرد محددة تحديدا اجتماعيا، حيث تعيش في إطار المقولات التي يدين بها في تكوينه<sup>11</sup>. وهو ما يؤدي إلى اختلاف خبرات الأفراد وأدوارهم ومراكزهم في المجتمع، فيختار الفرد أدوارا ومراكز ووظائف قد لا يشارك فيها عدد أفراد المجتمع الآخرين<sup>12</sup>

يعتبر هذا المفهوم من أكثر المفاهيم شيوعا والتباسا، شأنه شأن مفاهيم أخرى مثل الجماعة والزاوية... ويمكن الحديث عن القبيلة بوصفها تنظيما اجتماعيا، وهذه المقومات هي: مجال جغرافي مشترك، نسب مشترك، لغة مشتركة، ثقافة مشتركة، وهذه الوحدات تكون وحدة مشتركة<sup>13</sup> تسمى "قبيلة"، فعبد الله العروي يقول: "من أسباب صعوبة تحقيق التجديد المنشود عن طريق البحوث المحلية في المغرب غموض معنى القبيلة، غموض دفع محجري تاريخ افريقيا العام الصادر عن منظمة اليونيسكو الا يستعملوا الكلمة إلا مقرونة بمزدوجتين<sup>14</sup>، وأشار إلى هذه الصعوبة كذلك الباحثة صوفي كاراتيني<sup>15</sup> في بحثها حول قبيلة الركيباتواعتبر دو لاشايل القبيلة هي الوحدة الحقيقية للدولة<sup>16</sup> لقبيلة بالصحراء من بين أهم الموضوعات التي استأثرت باهتمام الباحثين والمفكرين، في مجال البيضان على مختلف مشاربهم وتوجهاتهم، فتميزها بنمط عيش وممارسات ترحالية يجعلها مادة مهمة للدراسة والبحث، رغم أن الدراسات الأولى مع الحقبة الاستعمارية وما قبلها، لا تعدو أن تكون سوى مونوغرافيات استكشافية لبعثات عسكرية (باستثناء بعض المونوغرافيات كالتى كتبها بول مارتى<sup>17</sup>، ألبير ليريش<sup>18</sup>، فنسان مونتاي<sup>19</sup> وارتبطت بأهداف استعمارية بحثة، لكنها مهدت الطريق فيما بعد، للدراسات الأكاديمية التي ساهمت في التأريخ للمجال.

تمثل القبيلة<sup>20</sup> أساسا قويا ومتينا في المجتمع الصحراوي، لبناء علاقات اجتماعية قائمة على قوة العصبية، وهو ما يظهر من خلال كثافة علاقات المصاهرة، فسق القرابة ونظام المصاهرة يستندان إلى قاعدة التوازن بين المجموعات القبلية، وتتحكم فيه ظروف الزمن السياسي (فترات الخوف، التحالفات، نظام السلطة) والاجتماعي (التنظيم الاجتماعي الرعوي، نمط العيش).

### أ - الرعي والترحال كنمط للعيش

على امتداد الزمن، كانت الصحراء تعيش تكاملا بين مكوناتها الاجتماعية والمجالية، ولم تستطع التحولات المتعاقبة أن تفسد العلاقة بين ساكنتها ومجالهم، بل كانت ذات استمرارية وديمومة، فعملت على تكييف نمط عيش الإنسان الصحراوي مع ظروف هذا الوسط، معتمدة على حلول غالبا ما كانت تعكس قدراته ودكاهه.



أنتج الإنسان الصحراوي نمط عيشه مما وفره له مجاله، فصراعه مع الطبيعة القاسي جعله يجند قواه ومقوماته، ويتخذ قرارات حاسمة<sup>21</sup> وسريعة مع حذر مستمر فنمط عيش الإنسان الصحراوي يعتمد على الترحال، ويعد الرعي أهم نشاط اقتصادي لأهل الصحراء، مع وجود بعض الزراعات في مناطق متفرقة كما نجد الصيد البحري، والنشاط التجاري، فالمجال الجغرافي فرض على الجماعات البشرية ضرورة التفاعل معه، للحصول على مصادر عيشها وماشيتها، وهذا الأمر عكسته أغلبية النصوص التي أوردتها كتب المسالك والممالك<sup>22</sup>

معلوم أن الإنسان يعمل على تنظيم المجال وتغييره، لكن هذا الأخير بالمقابل يؤثر بدوره يؤثر في الإنسان وفي أشكال حياته، ومن هنا يأتي دور الفرد والمجتمع، في الحفاظ على تطور المجتمع، وتغيير أساليبه وتقنياته، وتتكون شعوب المنطقة الصحراوية من مربي المواشي والرحل، ويسعف تكامل تلك العناصر على تنشيط الحياة الاجتماعية والاقتصادية، ولا يسمح لنا المقام بالنظر إلى كل ذلك، غير أن من الواجب إحالة القارئ على الكتابات القديمة التي اهتمت بتاريخ المنطقة، منذ القدم كـ "تاريخ السودان"، أو تاريخ الفتاش<sup>23</sup>.

يشكل الرعي مجالا واسعا، بحكم طبيعة نمط عيش السكان المتميز بالقلة وشظف العيش، خصوصا أمام سنوات الجفاف والأوبئة، وهذا كله ذو أثر على العلاقة بين الرحل والمستقرين، مما يفسر عدم استقرار بنية الصحراء البشرية، التي يرجع تشكّلها إلى عدة عوامل تاريخية وإيكولوجية تعمل عادة بصفة خفية لا واعية، حتى تدخل نطاق "الثابت والساكن"<sup>24</sup>.

كانت الغالبية العظمى من سكان الصحراء، تركز نفسها للأنشطة الرعوية وتشارك في نمط عيش الترحال، فالظروف المناخية خارج وادي نون ووادي درعة، تفرض نمط عيش الأولوية فيه للرعي والترحال، والذي هيمن على حوض الساقية الحمراء ووادي الذهب، غير أن فترات الجفاف كانت تفرض تنقلات جماعية، وهذه المناطق الصحراوية تقدم أفضل مراعي الإبل في الغرب الصحراوي، وهي مراعي تيرس الملائمة لتنمية اقتصاد رعي إبلي مزدهر، من أجل توفير الغذاء للمعيشة اليومية (الألبان واللحوم)، ويشير أحد الباحثين إلى أن الأهمية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في هذا السياق الغربي الصحراوي للجمل، ذلك الحيوان الشهير ذي الوظائف المتعددة، الذي يشكل بالنسبة للبدو دعامة للتمثيل الاجتماعي، والرمزي والكوني والانفعال الشعري<sup>25</sup>

هذا، وتقوم الأنظمة الرعوية في المناطق الصحراوية في الغالب، على تنقل الحيوانات وترحال الناس مندججة، في شكل من أشكال التكيف مع المحيط وتديير الموارد المتاحة. ولهذا، فإن نوعا من الحيوانات المدججة داخل هذا الفضاء، وثيق الصلة بقدرته على الصمود أمام المخاطر البيئية وبقوته، فالمطلوب من الحيوان الذي يعيش في الأرياف، أن لا يكون قادرا على البقاء والعيش في وسط مناخي قاس فحسب، بل وأيضا أن يكون قادرا على التوالد و الإنتاج، إذا يمكن القول إن هذه الظروف القاسية أثرت على نمط عيش القبائل وأنشطتها الاقتصادية، فقد



خلص جوردن است إلى أن الجغرافيا توجه التاريخ، لأن الإرادة البشرية والسياسية تكون على الدوام وراء عمليات تنظيم المجالات الحيوية، القائمة على إرث تاريخي<sup>26</sup>

لقد كان الرحل يعيشون في شكل جماعات (أسر)، والأسرة تعتبر نواة المجتمع الصحراوي، وهذا لا يعود إلى الرابط الدموي فقط، وإنما كذلك إلى كونها وحدة إنتاجية واقتصادية واجتماعية، رابطها يقوم على التكامل العضوي ووحدة الملكية والإنتاج والدفاع عن مصالحها المشتركة، ويكون فيها لكبير السن الرأي السديد المتعلق بالشؤون الداخلية لها، من حل الخلافات والزواج والعقيقة وغيرها، وفي حالة غياب الأب أو مات، يكون للولد الأكبر السلطة العليا في الأسرة، حيث تأخذ السلطة شكلا هرميا من الأكبر إلى الأصغر، غير أن الأسرة في السنوات الأخيرة عرفت تحولا ملموسا، طرأ على بنيتها الداخلية إذ أصبح كل فرد يطمح إلى تحقيق ذاته، ويسعى إلى الاستقلالية عنها، وقد أدى هذا الطموح إلى التضارب على المصالح، والذي يعتبر النزاع حول الأرض ومصادر الماء أحد أشكاله الكبرى. لذلك، بدأ الفرد شيئا فشيئا يفرض ممتلكاته التي حققها بمعزل عن ملك الأسرة الجماعي، فعرفت سلطة الأكبر سنا بعضا من الخلل، بعد أن أصبحت خبرته غير ملائمة للمواقف الجديدة<sup>27</sup> إضافة إلى ذلك، فاختلاف الأدوار والأهداف الخاصة والوظائف التي أصبح يتميز بها الأبناء تكويننا وتربية عن أبيهم، ساهمت في خلق صراع قوي وخفي أحيانا فيما بينهم، وزعزعت بالتالي قيم العلاقات الاجتماعية<sup>28</sup> التي سادت بين عناصر الأعراس الصحراوية لمدة طويلة، وقد يكون هذا التغيير نتيجة لانتشار عوامل ثقافية من ثقافة أخرى. إذا، فالمجتمع الصحراوي بدأ يعرف نمط حياة جديدة ومغايرة، بانقسامه إلى أسرة مستقلة بعدما كان كل شيء مشتركا من قبل.

ومجمل القول، إن الأسرة الصحراوية لم تعد تلك البنية الاجتماعية التي تعطي الاستمرارية لمجمل العادات والتقاليد، لأن وتيرة التغيير مستمرة لانتشار المؤسسات العصرية العامة والخاصة، من تعليم ومستشفيات ووسائل الإعلام وغيرها، الشيء الذي خلخل العلاقات بين مختلف عناصرها.

إن البحث في التكوين الاجتماعي الاقتصادي للمجتمع اليمني القديم يعتمد في الكشف عن الأسس والعلاقات الاجتماعية المرتبطة بما يعني ذلك ضرورة معرفة تطور قوى الإنتاج «درجة النمو الاقتصادي» وما ارتبط بذلك من تنظيمات اجتماعية وسياسية وثقافية. والتكوين الاجتماعي الاقتصادي يشمل كافة جوانب المجتمع بما في ذلك تداخل أنماط إنتاجية متعددة، أي أنه يتضمن نمط الإنتاج السائد وأنماط أخرى يرى « الأنصاري » أيضاً أن الدولة القطرية في الوطن العربي حالياً منذ فترة الاستقلال تشكل مرحلة إقطاعية مؤجلة في عصر الرأسمالية العالمية، وأن الدولة القطرية الحالية قد قامت بعملية توحيد داخلي للتكوينات الاجتماعية المحلية المتعددة في كل قطر مثال ذلك توحيد السلطنات والإمارات في اليمن، الإمارات، عمان، العراق التحديث Modernization ويقصد به الانتقال من المجتمع القديم التقليدي



Society Traditional إلى مجتمع التكنولوجيا الحديثة أو ما يطلق عليه المجتمع الحديث Society Modern، كما أن التحديث ليس مجرد القدرة على استخدام ما ينتجه الآخرون وإنما هو قدرة المجتمع ككل على التجدد Renewal أي هي التجديد في حياته دون انقطاع حضاري في تاريخه، والتحديث هو عملية تعديل البيئة الاجتماعية والرؤية المعرفية والأخلاقية والبنائية للمجتمع بحيث يصبح العقل هو مصدر المعرفة ويصاحبها نمو الديمقراطية وانتشار التعليم وتزايد تكيف المرء مع القيم والمخترعات الجديدة وتعاضم دور الإعلام ونزع القداسة عن الأفراد والرموز.<sup>29</sup>

إن ديمقراطية تقسيم الأراضي عند الأمازيغ أفرز نظاما يناسب ذلك في عملية السقي، فهو نظام يعتمد على النوبة التي تعتبر تنظيما إلزاميا أقره العرف السائد عند الأمازيغ. وحتى نبين تجلياتها أكثر فأكثر لابد من إعطاء بعض النماذج وهي نماذج أخذناها من قبائل صنهاجة اسراير<sup>30</sup>.

قسمت أراضي قبائل صنهاجة اسراير قديما على طريقة "إفاسن"، فكل "أفوس" له ورثته الذين يرثون فيه، ولكي لا ندرس كل قبيلة على حدى و تجنبنا للتكرار سنستخدم "دشر" (دوار) (إكرايمين" المنتمي إلى قبيلة آيتخونس، نموذجاً، ففي هذا الدوار قسمت أراضيها على خمسة. مثلاً فورثة "إرحوثن" يأخذون ثلاثة 15 إفاسن: "إرحوثن، إبقلاون، إطاهران، إعوزون، إعياذن، "أيام لسقي أراضيهم الموجودة في "أفوس" بالترتيب إما أن يتم البدء من الجهة السفلى أو من العليا، فإذا تم البدء في المرة الأولى من إحدى الجهات ففي المرة الثانية يتم البدء من الجهة المعاكسة وهكذا دواليك عند كل "إفاسن"<sup>31</sup>.

يعرف الإنتاج بأنه صناعة شيء من شيء آخر ويعتمد على استخدام مجموعة من الأدوات والوسائل والآلات من أجل الوصول إلى تحقيق الهدف الرئيسي منه. ويعرف الإنتاج أيضاً بأنه الخطوة المهمة في سلسلة تحتوي على مجموعة من العمليات التي تساهم في الحصول على سلعة أو خدمة معينة يتم تقديمها إلى الجمهور المستفيد ومن التعريفات الأخرى للإنتاج أنه كل عملية لها مدخلات ومخرجات وموارد تعمل على تطبيق مجموعة من الخطوات التي تساهم في تحويل المواد الخام إلى منتجات يستفيد منها الأفراد في المجتمع.<sup>32</sup>

لا تمثل فكرة تعاقب أنماط الإنتاج، في حد ذاتها، قطيعة جذرية مع أعراف الاقتصاد السياسي الكلاسيكي. هناك، أيضاً، يتم تقديم التاريخ كسلسلة من أنماط المعيشة، مدفوعة بتقسيم العمل، كل واحدة أكثر تقدماً من الناحية التكنولوجية من سابقتها وأكثر قدرة على خلق فوائض؛ وما زال تسلسل ماركس يشترك معه في الكثير. على الرغم من أن تحليله للرأسمالية يعترف بوضوح بدافعها المميز لتحسين إنتاجية العمل باستمرار، إلا أن العملية التاريخية برمتها التي تبلغ ذروتها في الرأسمالية قد تظل مدفوعة بميل حتمي عابر للتاريخ لتحسين قوى الإنتاج





من خلال تقسيم العمل والتحسين التكنولوجي. حتى أن هناك عنصرًا مهمًا في نموذج سميث "للتسويق"، أو مفاهيم التقدم كتحرير للبرجوازية، في تفسير ماركس لكيفية مساعدة الشكل الجرماني في ظهور الرأسمالية من خلال ترك مجال لاقتصاد حضري مستقل.<sup>33</sup>

إن تعايش العديد من أنماط الإنتاج ضمن تكوين اجتماعي واحد ليس ظاهرة خاصة بالمجتمعات الصناعية. أظهر (Terray 1972: 136-138، هنا وهناك) أن التكوين الاجتماعي التقليدي لغورو (ساحل العاج) يمثل مزيجًا وتعبيرًا عن نمطين مختلفين للإنتاج. يتم تنظيم الصيد، ولكن صيد الشباك فقط وليس صيد الحيوانات الكبيرة، وفقًا لطريقة الإنتاج. الزراعة وصيد الأسماك والتجميع وبناء المنازل وصيد الطرائد الكبيرة وتربية الماشية هي الفروع الاقتصادية التي يتم فيها تنظيم الإنتاج وفقًا لنمط الإنتاج 11. يتميز الأساس الاقتصادي للنمط الأول، من الناحية الاجتماعية، بالملكية الجماعية لوسائل الإنتاج والمشاركة المتساوية للمنتجات، ومن الناحية الفنية، من خلال العمل الجماعي التعاوني المعقد. بسبب هذا الهيكل للقاعدة الاقتصادية، فإن المؤسسات البنوية الفوقية الملحوظة الوحيدة المطلوبة هي قيادة حزب الصيد (الضرورة التقنية) التي يتم اختيارها وفقًا للجدارية (نتيجة الجانب الاجتماعي المتكافئ للقاعدة الاقتصادية)، وقرية، منظمة بشكل فضفاض، التي تم تجميعها في وحدة واحدة لأغراض الصيد وفي وقت الحرب. التعاون البسيط هو الجانب الرئيسي (من حيث التكنولوجيا) للقاعدة الاقتصادية للنمط 11. من الناحية الاجتماعية، تختلف هذه القاعدة الاقتصادية عن تلك الموجودة في النمط الأول من خلال حقيقة أنه، بدون الضرورة التكنولوجية، حق استخدام وسائل الإنتاج تحت سيطرة كبار السن من الرجال الذين تربطهم صلة قرابة بالمنتجين (ذكر وأنثى في هذه الحالة). وهذا يعني، كجهاز فوق بنوي ضروري، أيديولوجية التمايز الاجتماعي عبر العمر والجنس. مع نظام النسب، تشكل القرابة وتنظم بما يتلاءم مع البعد الاجتماعي الاقتصادي للأساس الاقتصادي ومتطلباته التقنية (نقل الأيتام والأفراد ودمج الأسرى من أجل تصحيح اختلال التكاثر الطبيعي بين الوحدات).<sup>34</sup>

على النقيض من أنصار التطور الثقافي الذين يعتبرون المجتمعات بمثابة بنية واحدة من المستويات المترابطة، فإن ماركس، ومقاربات مثل ماوس في هذه الحالة، تصور المجتمع على أنه يتكون من عدة هياكل أولية من المستويات المترابطة: أي الجمع / التعبير عن عدة أنماط من إنتاج. من الضروري الإشارة إلى هذا الاختلاف من أجل فهم المحتوى الدقيق لنظرية ماركس في التحديد من خلال القاعدة الاقتصادية.<sup>35</sup>

إن أطروحة ماركس حول تحديد البنية الفوقية بالقاعدة الاقتصادية هي نظرية حول كيفية ترابط عناصر معينة من الإنتاج، والأيدولوجيا، والقانون، والنظام السياسي، والتعليم، وما إلى ذلك، وتشكل نمطًا معينًا للإنتاج. بالضرورة، يوجد في مجتمع ما مؤسسات خارجية، أو غير متوافقة مع ما تم تعريفه على أنه أحد أنماط إنتاجه. على سبيل المثال، كما في مثال ماركس المذكور أعلاه، في إنجلترا في القرن التاسع عشر، كان من غير القانوني العمل في حديقته الخاصة (إنتاج غير رأسمالي) يوم السبت، بينما كان لصاحب العمل الرأسمالي الحق القانوني في إجبار



موظفيه على العمل يوم الأحد. وهكذا يمكننا أن نرى أن تدنيس يوم السبت ليس عنصرًا هيكليًا فائقًا لنمط الإنتاج الرأسمالي. ومع ذلك، فهو ينتمي إلى مجموعة القوانين العامة للتكوين الاجتماعي البريطاني في تلك الفترة.<sup>36</sup>

#### الهوامش:

- <sup>1</sup> إبراهيم القادري بوتشيش: مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والاندلس خلال عصر المرابطين، الصفحة 225.
- <sup>2</sup> مليكة فرحات القبيلة كتنظيم اجتماعي وحيثية تاريخية. أفكار وآفاق، المجلد 10، العدد 3، السنة 2022 الصفحة 86.
- <sup>3</sup> مليكة فرحات القبيلة كتنظيم اجتماعي وحيثية تاريخية. أفكار وآفاق، المجلد 10، العدد 3، السنة 2022 الصفحة 91.
- <sup>4</sup> عثمان الطيب: الجمع بين تربية الماشية و الزراعات المسقية. ضرورة أم اختيار في منطقة أقصى شمال الشط الشرقي، مجلة انسانيات، مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية و الثقافية العدد 38. أكتوبر-دجنبر 2007، الصفحة 19.
- <sup>5</sup> للاستزادة انظر:
- محمد القبلي: مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، الطبعة الاولى، دار توبقال، الدار البيضاء، 1987م الصفحة 13.
- <sup>6</sup> عز الدين احمد موسى: النشاط الاقتصادي، الصفحة 193-194.
- <sup>7</sup> Archive du Maroc. (1932-1933). Situation politique et militaire: Rapports Hebdomadaires et mensuels. cote S288 Boite 67, situation économique, Ait Boulli
- <sup>8</sup> الصفحة 516
- <sup>9</sup> الصفحة 516.
- <sup>10</sup> فائز، عبد الحميد. الحرب في المجتمعات الرعوية، آليات إنتاج العنف في المجتمع البيضي قبل الاستعمار. مركز الدراسات الصحراوية، دار أبي رقرق للطباعة والنشر. 2015. ص: 73..
- <sup>11</sup> غالي. إ، الانثروبولوجيا الفكرية، دراسة في انثروبولوجيا بيزيروديو، القاهرة 1999، ص: 29.
- <sup>12</sup> براهيم، ز، الانثروبولوجيا والانثروبولوجيا الثقافية، دمشق 2009، ص: 24.
- <sup>13</sup> Godelier (M) : Tribu” article in : Encyclopédie univ , vol .16 France 1968 .p: 315.
- <sup>14</sup> عبد الله العروي، تقديم كتاب “السلطة والمجتمع في المغرب”، نموذج ايت باعمران، البيضاء 1989 ص: 05.
- <sup>15</sup> Caratine (sofhie): Apropos des Rgaybat du sahara occidental. U.R.B.A.M.A.1989.Fax:20-2
- <sup>16</sup> ولا شايبيل: أخذًا عن مصطفى ناعمي (الصحراء من خلال بلاد تكتة)، ص: 145.
- <sup>17</sup> Marty ,paul ( 1919) , l’émirat des tranzas , paris ; leroux.
- <sup>18</sup> Leriche ,Albertr (1952) , Coutumes d’autrefois en Mouritanie IFAN . Tome XIV N°1.
- <sup>19</sup> Monteil , Vincent ( 1948). Notes sur les tekna , Paris , Larose
- <sup>20</sup> خوليو كاروبروخا، دراسات صحراوية، ترجمة أحمد صابر، ط، 2015، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط، ص: 62.
- <sup>21</sup> goudio ,Attilio , les population du sahara occidental histoire vie et cuture , ED : karthala 1993, p : 251.
- <sup>22</sup> انظر ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، بيروت 1979، ص: 83.
- <sup>23</sup> السعدي، عبد الرحمان، تاريخ السودان، تحقيق وترجمه للفرنسية، هوداس - بونوة، طبعة باريس: 1981.
- <sup>24</sup> ابن محمد قسطنطيني: الواحات المغربية قبل الاستعمار، غريس نموذجًا، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، 2005، ص: 138.
- <sup>25</sup> للاستزادة انظر :
- Hubert, B (dir) , la rusticité , l’animal , la race , la système d’élevage – Paestum hors série , Association française de pastoralisme , Agropolis International , Cordère éditeur , Montpellier , 2011.
- <sup>26</sup> جوردن است: الجغرافيا توجه التاريخ، ترجمة: جمال الدين الدناصوري، دار الحديث، بيروت 1982، ص: 173.



<sup>27</sup> محمد علي محمد: الشباب العربي و التغيير الاجتماعي، دار النهضة العربية للطباعة و النشر، بيروت 1985، ص: 59.

<sup>28</sup> محمد نجيب النحيسي: الأسس الاجتماعية للتربية، دار القلم، الكويت، ط 1973، ص: 239/237.

<sup>29</sup> اسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي الصفحة 107.

<sup>30</sup> عبد الكريم حمداش : العادات الاجتماعية عند قبائل "صنهاجة اسراير" (إصنهاجن) مجلة تيدغينلابحات الامازيغية والتنمية، العدد 2 - السنة الأولى - 1434 هـ / 2963 أ / م 2013 ، الصفحة 56.

<sup>31</sup> عبد الكريم حمداش : العادات الاجتماعية عند قبائل "صنهاجة اسراير"، الصفحة 57.

<sup>32</sup> الموسوعة العربية العالمية الطبعة الثانية، جزء 3، المملكة العربية السعودية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، صفحة 144.

<sup>33</sup> Ellen Meiksins Wood : Historicalmaterialism in FormwhichPrecedeCapitalist Production,ImprintRoutledge1st Edition,2008.Page 86.

<sup>34</sup> DOMINIQUE LEGROS :Chance, Necessity, and Mode of Production: A Marxist Critique of Cultural Evolutionism, Page 30.

<sup>35</sup> DOMINIQUE LEGROS :Chance, Necessity, and Mode of Production: A Marxist Critique of Cultural Evolutionism Page31

<sup>36</sup> DOMINIQUE LEGROS :Chance, Necessity, and Mode of Production: A Marxist Critique of Cultural Evolutionism Page 31.